

المضمون العقدي لفكرة الوطن في الإسلام

د: كمال يوسف أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة جامعة أم درمان الإسلامية وجامعة الدمام (حالياً)

مقدمة

الحمد لله المتفرد بالخلق والتدبير، المتفضل على عباده بالإحسان والخير، والصلاة والسلام على البشير النذير المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد... فإنه لا يخفى على المتبصر ما تمر به الأمة الإسلامية اليوم حيث أرضها تنقص من أطرافها وخيراتها تنهب ليل نهار وأضحت شعوبها تتسول على موائد اللثام تطلب ما يسد رمقها فلا تجاب وإن أحييت فبشروط ظاهرها فيه الرحمة ، وباطنها من قبله العذاب؛ وهذا الواقع المرير كان نتيجة لأسباب كثيرة ، ومتراكمة لعل من أهمها غياب الرؤية الحقيقية لمفهوم الوطن في الإسلام ، وسيطرة مفهوم الوطنية المعلمنة المستورد من خارج البيئة الإسلامية ؛ والذي أحال الوطن إلى معبود والوطنية إلى فكرة مصلحة رخيصة، ولما كان هذا هو الواقع أحييت أن أكتب هذا البحث ليسهم في توضيح الرؤية الصحيحة لفكرة الوطن في الإسلام ومضمونه العقدي، وقد تكوّن البحث من ثلاثة مباحث

المبحث الأول مفهوم الوطن

المطلب الأول: الدلالة اللغوية لمفهوم الوطن

جاء في كتاب (مجل اللغة) لابن فارس: الوَطَنُ: "مَحَلُّ الْإِنْسَانِ .. وَوَطَنْتُ الْأَرْضَ اتَّخَذْتُهَا وَطَنًا"⁽ⁱ⁾.

والوَطَنُ: مكانُ الإنسانِ ومَقَرُّه ومنه قيلَ لمرِيضِ الغَنَمِ (وطنٌ) والجمعُ (أوطانٌ) مثلُ سببِ وأسبابٍ، وأوطَنَ الرجلُ البلدَ ، وأستوطنَهُ ، وتوطنَهُ اتَّخَذَهُ (وطنًا) ، والموطنُ مثلُ الوطنِ ، والجمعُ (مَوَاطِنُ)⁽ⁱⁱ⁾.

ومكان استقرار الإنسان قد يكون ضيقاً يخص الفرد وأسرته ولا يشاركه غيره فيه مثل: البيت أو المنزل وقد يتسع ليشركه الآخرون من بني جنسه فيه بدءاً بالقرية، ثم المدينة، ثم المصر، ثم البلد أو الدولة، ثم الأرض بكاملها. وقد وردت هذه المعاني في الترتيل الحكيم⁽ⁱⁱⁱ⁾.

البيت: هو المأوى والمآب ومن الآيات التي ورد فيها ذكره قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(iv).

القرية: هي كل موضع يجتمع فيه ناس وقد تطلق على الناس المجتمعين وعلى المصر الجامع^(v). ومن الآيات بالمعنى الأول، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَى الْحَسَنِاتِ﴾^(vi).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(vii).

المدينة: من مدن بمعنى أقام ، ومنه: المدينة، للحصن يُبنى في أَصْطَمَّةٍ أرضٍ، ومدن المدائن
تمديناً: مَصْرَهَا أي: جعلها صالحة للإقامة(viii). قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ
يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ (ix). وقال عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا
الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (x).

المِصْرُ: اسمٌ لكل بلد مَمْصُور، أي: محدود، ومِصْرُ الأَمْصَارِ تَمْصِيرٌ: بناها، وقد مِصَّرَ عَمْرُ
سبعة أَمْصَارٍ، منها المِصْرَانِ: البصرة والكوفة، وقد ذُكِرَ المِصْرُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ
قُلْتُمْ يَمْشُورُونَ لَنْ نَضْرِبَ عَلَى طَعَامِ وَجَدٍ قَادِحٌ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ
بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأَلْتُمْ﴾ (xi).

يقول ابن كثير: "وقوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو مُنُونٌ مصروفٌ مكتوبٌ بالالف
في المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف" (xii)، ثم بعد أن أورد الأقوال
في المراد بالمصر ما هو؟ أمِصْرُ فرعون أم مصرٌ من الأَمْصَارِ؟ قال: "والحق أن المراد مصرٌ من
الْأَمْصَارِ كما رُوي عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك ؛ لأن موسى عليه السلام -
يقول لهم: هذا الذي سألتهم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه،
فليس يُساوى مع دناءته وكثرته في الأَمْصَارِ أن أسأل الله فيه" (xiii).

ومن الألفاظ التي غالباً ما تستخدم بمعنى المصر في هذا السياق: الولاية، والإقليم،
والمقاطعة (xiv).

البلد: بَلَدُ المكان بُلُوداً: أقامَ و لزمه، أو اتخذهُ بِلداً والبلد: جنس المكان كالعراق والشام
وإذا خُصص منه جزءٌ سُمي الجزء المخصص بلدة كالْبَصْرَةَ من العراق ودمشق من الشام (xv)
وهو بهذا المعنى كناية عن جملة المدن (xvi). قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي

الْيَلْدِ ﴿١٧٧﴾. وقال سبحانه: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْيَلْدِ * وَنُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْيَلْدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ (١٧٨). ومن الألفاظ الحديثة القريبة المعنى من لفظ البلد لفظ الدولة (١٧٩).
الأرض:

وهي الجرم المقابل للسماء، وجمعها أرضون ، وأرضات ، وأروض ، وأراض ، وأراضي (١٨٠).
وقد ورد ذكر الأرض في القرآن على أربعة عشر وجهاً (١٨١) أشهرها هو المتعارف عليه بوضع اللغة في الدلالة على الجرم المقابل للسماء والذي هو الوطن العام للإنسان ، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله عز وجل ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٨٣).

المطلب الثاني: الدلالة الاصطلاحية لمفهوم الوطن

واستناداً إلى التعريف اللغوي السابق للوطن ؛ فإن كل فرد من الأفراد أو جماعة من الناس تحيز مكاناً من الأرض وتحدده لتعيش فيه مقتطعة هذا المكان من الوطن العام الذي هو الأرض سُمي هذا المكان المقتطع وطناً^(xxiv) وقد يُسمى بيتاً أو قرية أو مصراً أو بلداً أو دولة بحسب ما تم بيانه سابقاً.

هذا وقد قسم العلماء الوطن باعتبار الاستقرار فيه من عدمه إلى ثلاثة أنواع^(xxv).

الأول: الوطن الأصلي: مولد الإنسان أو البلدة التي تاهل فيها.

الثاني: وطن الإقامة: وهو البلدة أو القرية التي ليس للمسافر فيها أهل وينوي الإقامة فيها خمسة عشر يوماً فصاعداً.

الثالث: وطن السكنى: وهو المكان الذي ينوي المسافر أن يقيم فيه أقل من خمسة عشر يوماً. ومن ناحية أخرى يمكن تقسيم الوطن باعتبار أبعده وزواله إلى نوعين:

الأول: وطن فانٍ: وهذا يشمل الأرض بيوها ، وقرها ، وأمصارها ومدنها وبلداتها ودولها فكلها إلى زوال وفناء ، وهذا مبدأ عقدي يعتقده كل مؤمن لورود الأدلة بذلك من الكتاب والسنة، أما من الكتاب فقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنَ عَلَيَّهَا فَإِنْ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

وَالْإِكْرَامِ﴾^(xxvi).

والضمير في (عَلَيَّهَا) للأرض يدل على ذلك سياق الكلام، وإن لم يتقدم لها ذكر، ويعني: (مَنْ عَلَيَّهَا) : بني آدم وغيرهم من الحيوان^(xxvii) وإذا هلك بنو آدم فهذا يعني خراب الأرض وتعطيلها.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(xxviii).

وحقائق الواقع الإنساني تعضد ذلك فكم في تاريخ البشرية وحضارتها من أمم عمرت الأرض واعتزت بأوطانها وما أنجزت ، فلما تطاول عليها العمر أخذوا بعد انقضاء أجلهم المحدد ، أو بعقوبة إلهية سريعة للذنوب ارتكبوها. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (xxix).

وقال عز وجل: ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ لَهَا أُخْرَىٰ وَمُصَرِّحًا لَهَا ﴾ (xxx).
والثاني: وطن دائم، ويشمل النار ، والجنة.

١- النار: هي وطن باق ومستقر أبدي للكفار لا يخرجون منها ، وهي دار أبدية لا تنقضي لا بخرابها ، ولا بموت أهلها، وقد وصفها الله تعالى بأنها نُزُل ، ومأوى ، ومثوى ، ودار لهم ، وهي أوصاف مرتبطة بالمكان، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ (xxxi). والنزل ما يُقدَّم للضيف عند نزوله والمعنى أن جهنم لهم بدل النزل ويحتمل أن يكون النزل موضع التزل (xxxii) ، وهو ما يناسب مقام الاستشهاد هنا، أما وصفها بأنها مأوى للكفار فقد جاء ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمًا وِبَكَاً وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (xxxiii). وخبث بمعنى: سكن لخبثها والمعنى: كلما أكلت لحومهم فسكن لخبثها بدلوا أجساداً أحر ثم صارت ملتتهبة أكثر مما كانت (xxxiv) وهذا يفيد استمرارية العذاب وخلود المكان موضع العذاب.

ووصفت بأنها مثوى لهم في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَسِرَ الْجَنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْنَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوِيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (xxxv). والمثوى: المقام والمقر والمصير ، وأكد سبحانه خلود المثوى ، وتأيدته بقوله: (خَالِدِينَ فِيهَا) مما يعني أنهم لا يستطيعون أن يتخلصوا من هذا المثوى بالموت كما تخلصوا من المثوى الدنيوي بالموت من قبل (xxxvi).

وأما أنها دار لهم فقد جاء ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخَالِدِ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ﴾ (xxxvii)، وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ أَلْقَارُ﴾ (xxxviii).

٢- الجنة: هي الوطن الخالد ، ودار المقامة الأبدية للمؤمنين، ووصفت بأنها دار، ونزل، ومستقر ، ومقام، ومأوى، وهي أوصاف لهذا الوطن الأبدى الذي لا يغي من دخله عنه جولا، أما أنها دار للمؤمنين ومقام لهم فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (xxxix)، والمقامة هي: الإقامة، والموضع ؛ وإنما سميت الجنة دار المقامة لأن المؤمنين يقومون فيها ولا يخرجون منها^(xl)، وهي نزل للمؤمنين أي: موضع الترول قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (xli). كما أنها مستقر أبدي يستريح فيه المؤمن بعد رحلة الكدح في الدنيا: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مَنُورًا * أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٢١﴾ (xlii). وهي المأوى لمن أطاع ربه ولم يتبع هواه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (xliii)

وهذا الوطن (الجنة) يتضمن بيوتاً ، ومنازل، وقصوراً ، وغرفاً ، وخياماً جاء ذكر البيوت في قوله عز وجل عن امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أُمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْفَأْوَيرِ الظَّالِمِينَ﴾ (xliv). وفي قوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان والترمذي من رواية عثمان بن عفان رضي الله عنه قال عند قول الناس فيه: (حين بني مسجد رسول الله ﷺ إنكم أكثرتم، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) (xlv)، وأما المنازل: فقد جاءت الإشارة إليها في قوله ﷺ: (يُخَلِّصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيَجْسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقْتَصِرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَذَّبُوا وَنُقُوا أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأُحْدِثُ لَهُمْ أَهْدًى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا) (xlvii).

والقصور: جاء النص عليها في السنة النبوية ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرِ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِشَابٍّ مِنْ قُرَيْشٍ، فَظَنَنْتُ أَنِّي أَنَا هُوَ، فَقُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالُوا: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ) (xlviii).

وأما الخيام: فقد ذُكرت في قوله ﷺ: (إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ بِحُفَّةِ طُولِهَا فِي السَّمَاءِ مِثْلَ - وفي رواية - عَرْضِهَا لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ ، فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا) (xlviii). ونأتي بعد هذا إلى ذكر الغرف كما نص عليها قول الله عز وجل ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ هُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (xlix). وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٤﴾ . و قوله ﷺ: (إن في الجنة غُرَفًا يُرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقام أعرابي فقال : لِمَن هي يا رسول الله ؟ قال : لِمَن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام) ^(١٤).

ولا شك أن الفوز بهذا الوطن الخـالد أي: الجنة مشروط بعدم إرادة العلو والفساد في الوطن الفاني أو المؤقت- ناهيك عن الممارسة الفعلية للعلو والفساد- قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١٥). ومن جهة أخرى فإن المؤمن أبداً يَجُنُّ إلى الجنة وطنه الأول، لما خلق الله تعالى آدم -عليه السلام- أسكنه هو وزوجته الجنة واهبطا منها ووُعِدَا بالرجوع إليها ، وصالحُ ذريتهما ^(١٦) فالمؤمن يظل يعيش غريباً في هذه الدنيا إلى أن يرجع إلى منزله الأول.

المبحث الثاني الإطار العقدي لفكرة الوطن

المطلب الأول: الأرض كلها لله تعالى

يدخل ملكُ الله تعالى للأرض وما عليها ، وما فيها في عموم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(div) ، وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(lv). والذي يخلق هو الذي يملك ، وأضافها الله تعالى إليه صراحة عندما قال: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾^(lvi). وأكد ملكه لها بلام الملك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَرْضَ اللَّهِ يُوْرِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(lvii).

وقد ورد ذكر الأرض في القرآن الكريم (٤٥٢) اثنتان وخمسون وأربعمئة مرة^(lviii) على أربعة عشر وجهاً وهي كما ذكرها الفيروزآبادي في كتاب (بصائر ذوي التمييز)^(lix) على النحو التالي:

الأول: بمعنى الجنة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(lx).

الثاني: بمعنى أرض الشام وبيت المقدس: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ﴾^(lxi).

الثالث: بمعنى المدينة المنورة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾^(lxii).

الرابع: بمعنى أرض مصر خصوصاً: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(lxiii).

الخامس: بمعنى أرض ديار الإسلام: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾^(lxiv).

السادس: بمعنى جميع الأرض: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(lxv).

السابع: بمعنى تراب القبر: ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ (lxvi).

الثامن: بمعنى تيه بني إسرائيل: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (lxvii).

التاسع: كناية عن القلوب: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ﴾ (lxviii). يعني منفعة مواعظ القرآن في قلوب الخلق.

العاشر: بمعنى ساحة المسجد وصحنه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (lxix).

الحادي عشر: بمعنى المقام: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (lxx). أي: بأي مقام.

الثاني عشر: بمعنى أرض مكة المكرمة: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (lxxi).

الثالث عشر: بمعنى أرض يهود قريظة وبني النضير: ﴿وَأَوْزَكْنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَدْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَعُوهَا﴾ (lxxii).

الرابع عشر: بمعنى أرض المحشر: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ (lxxiii).

وإن كان بعض هذه الوجوه يحتمل الواحد منها معنى آخر غير ما ذكر ؛ وقد يكون هو الأقوى احتمالاً، ومن جانب آخر فبالنظر إلى هذه الوجوه يمكن إرجاعها إلى وجهين:

الأول: بمعنى الأرض كلها ، وهي وطن للبشرية جمعاء، وهي الوطن العام.

الثاني: بمعنى أرض معينة تم حيازتها وتخصيصها من تلك ، وفي هذه الحالة تمثل هذه الأرض الوطن الخاص الذي يُنسب إلى القوم أو الأمة التي تقطنه وهو ما يُعرف حديثاً بـ(الوطن -

الأمة)، نلاحظ هذا المعنى في خطاب الأمم الكافرة لرسولهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ (Ixxiv).

وأحياناً يُنسب هذا الوطن الخاص إلى فرد من الناس حكم القاطنين في تلك البقعة من الأرض ، وتجبر عليهم وعبدتهم ، وصارت العلاقة بينه وبين الوطن علاقة تلازم ، فيلزم من بقائه بقاء الوطن ومن زواله زواله ، وهذا النموذج من الوطن المرتبط بالفرد وُجد في تاريخ البشرية قديماً ، وله حضوره في الوقت الحالي في كثير من بقاع العالم ، وخاصة في البلاد العربية والإسلامية ، والمثال الذي وزد في القرآن الكريم والذي يبين لنا ما تم ذكره ، ما كان من الملأ من قوم فرعون - أصحاب المصالح - عندما ربطوا الوطن بشخصه وجعلوه ملكاً له وليس لهم جميعاً ، قال الله تعالى عنهم: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (Ixxv).

فخطبوه بخطاب الجمع تفخيماً لشأنه عندما قالوا له (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ) وأقاموه مقام الجماعة عندما قالوا له: (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) ، وهذا الذي قاله الملأ هو ما كان يؤمن به فرعون فعلاً ، ونادى به في قومه عندما قال: ﴿ يَنْقُورِ آلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (Ixxvi).

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الأرض هي الوطن العام ، ويدخل في هذا العموم الأرض بمعنى الوطن الخاص ، وإذا نتحدث عن الوطن بالمفهوم الذي تم بيانه فلا بد أن ننأ بأنفسنا عن النظرة العلمانية الإلحادية التي تستبعد العناية الإلهية في الكون وتحيل الأمر إلى المصادفة ، فلا بد إذن من ربطه بخالقه ومدبر أمره ، ولذلك سنركز على المسألتين التاليتين.

المسألة الأولى: خلق الأرض ونهايتها: الله تعالى هو الذي خلق هذا الكون: ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (Ixxvii). وما كوكب الأرض في هذا الكون الشاسع إلا عبارة عن مسرح

صغير جداً^(lxxviii) ومن خلال ما قرره العقيدة الإسلامية بشأن هذا الوطن الكبير (الأرض) يمكن التأكيد على النقاط التالية:

أولاً: أنها خلقت من أجل حكمة ولها قانون يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(lxxix)

ثانياً: أن تشكّلها كان قبل تشكّل السموات، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَ نُفُوسٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(lxxx)

ثالثاً: أنها تسبح في الفضاء وتسبح الله تعالى بطريقة لا نفقهها: "﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَلَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾"^(lxxxi)

رابعاً: وأن الإنسان خلق منها وإليها يعود: ﴿مِنَّا خَلَقْنٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرٰى﴾^(lxxxii)

يقول ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ ، وَالْأَبْيَضُ ، وَالْأَسْوَدُ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ ، وَالْحَبِيثُ ، وَالطَّيِّبُ)^(lxxxiii) . وهذا هو سر ارتباط الإنسان بالأرض وخلوده إليها.

خامساً: وأن لها أجل ونهاية: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (lxxxiv). ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (lxxxv). فالله تعالى جعل لها أجلاً تنتهي عنده ولا تبقى بعده (lxxxvi).

المسألة الثانية: ههيتها وتسخيرها: الناظر في هذه الأرض يدرك مدى رحمة الله بعباده ، وكيف أن الله تعالى هيا أسباب الوجود الإنساني على هذا الكوكب ، الذي لا يوجد مكان آخر غيره يهاجر إليه الإنسان ، فالإنسان يقدر فقط على القيام بزيارات إلى كواكب أخرى أما الاستقرار فليس إلا على هذه الأرض الوطن الوحيد للجنس البشري (lxxxvii). وهناك ثلاث خصائص هي التي جعلت الأرض تنفرد عن بقية المنظومة الشمسية ؛ ومن ثم تصبح صالحة للحياة ووطناً للإنسان وهي (lxxxviii):
- المحيطات. - الأوكسجين. - الحياة .

ثم إن الله تعالى سخر هذه الأرض للإنسان، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسٍ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (lxxxix).

وتظهر وجوه هذه التسخير في منافع لا حصر لها يمكن الإشارة إلى بعضها (xc).
المنفعة الأولى: الأشياء المتولدة فيها من المعادن ، والنبات والحيوان ، والآثار العلوية ، والسفلية.

الثانية: اختلاف بقاع الأرض فمنها أرض رخوة، وصلبة، ورملة، وسبخة، وحرّة وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ﴾ (xci).

الثالثة: اختلاف ألوانها فأحمر وأبيض، وأسود ، وأغبر ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (xcii).

الرابعة: انصداعها بالنبات: قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّغِيَرِ﴾ (xciii).

الخامس: كونها خازنة للماء المتزل من السماء، على ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلِنَاعِلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَدَرُونَ﴾ (xciv).

السادسة: العيون والأهوار العظام التي فيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (xcv). كالنيل ، والفرات ، ودجلة وغيرها.

السابعة: الخبء الذي تخرجه الأرض من الحب ، والنوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ (xcvi). وقال: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (xcvii).

الثامنة: حياتها بعد موتها: قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمُّ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (xcviii).

التاسعة: ما عليها من الدواب المختلفة الألوان ، والصور ، والخلق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْفِرَ عَمَلِ تَرْوَنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ (xcix).

العاشرة: ما فيها من النبات المختلف ألوانه ، وأنواعه ، ومنافعه يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (c).

الحادية عشرة: ما فيها من الأحجار الكريمة الصغيرة ، والكبيرة المتخذة للزينة ، وفي الأبنية. الثانية عشرة: ما أودع الله فيها من المعادن مثل الذهب ، والفضة ، والحديد والنحاس ، وغيرها من المعادن التي عليها تقوم حياة الإنسان و بها تبني الحضارات.

وقد كثرت الآيات القرآنية التي تنبه على دلائل الأرض ، ومنافعها ، وتسخيرها ، وتحيثتها ليعيش الإنسان عليها مما يحتم على الإنسان تحقيق أمرين:

الأول: القيام بواجب العبودية لله تعالى وشكره على نعمة المأوى ، والمقر.
الثاني: تعمير الأرض ، وتحمل المسؤولية في حمايتها^(ci) والمحافظة عليها خاصة في ظل هذه الثورة الصناعية ، والتقنية وما أفرزته من مشاكل تهدد وجود الإنسان على الأرض ، وكمثال على ذلك ما يُعرف الآن بقضية (الاحتباس الحراري).

المطلب الثاني: استعمار الإنسان في الأرض

أولاً: الإنسان كائن مخلوق مكرم

الإنسان ذلك الكائن المعلوم من حيث حقيقته ، وبدايته ، والغاية من وجوده ، ومصيره كل ذلك معلوم وفق ما بينته العقيدة الإسلامية السمحاء.

فالإنسان كائن فريد في نوعه إذ يتكون من عنصرين: الجسد الذي يعود في أصله إلى التراب ، والروح الآتية إليه من العالم العلوي يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(cii) وقال عز وجل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(ciii). وهو مخلوق في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(civ). نرى هذا في تكامل الحياة العقلية ، والنفسية ، والحسية لدى الإنسان ؛ وبهذا يختلف التصور الإسلامي للإنسان عن تلك التصورات الجزئية التي لم تر له أصلاً علوياً ، وإنما يفهم كجزء من الطبيعة كما هو الشأن عند براكلسوس (pracalsus) ، أو هو قمة التطور البيولوجي كما ذهب إلى ذلك تشارلز دارون (Darwin)، أو تلك التي اعتبرته كائناً روحانياً غريباً عن هذا الكون^(cv) كما نلاحظ ذلك في بعض الديانات الشرقية والفلسفات القديمة.

يجانب ذلك فقد وهب الله تعالى وسائل المعرفة والإدراك: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ^(cvi).

ورُكِّب فيه غريزة حب التعاون ، والتعارف ، والتآلف مما جعله كائناً اجتماعياً يسعى في جماعية من أجل تشكيل ، وتكوين المجتمعات ، والأمم يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (vii). وهذا وغيره مما لم يُذكر استحقاق الإنسان أن يُوصف بأنه كائن مكرم هو قمة الكائنات ، وسيدها في هذا الوجود: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (viii). مع التأكيد على أنه ووفقاً لدلالة النص القرآني فإن هذا التكريم عام في الإنسانية يشترك فيه الجميع المؤمن ، والكافر ، وهو بخلاف التكريم الخاص المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ﴾ (ix). فهذا لا يناله إلا من اتقى وكما هو معلوم فإن أسس التقوى هو الإيمان بالله تعالى وما يندرج تحته من أصول الإيمان الأخرى.

ثانياً: تعمير الأرض وإصلاحها:

لما وهب الله الإنسان العقل الذي هو مناط التكليف ، وخصه بوسائل الوصول إلى المعرفة أصبح الإنسان كائناً مؤهلاً لتحمل التكليف الإلهية، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (x). وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً - رضي الله عنه - إلى اليمن قال: (إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) (xi).

وإذا كان الإنسان مكلف فإن هذا التكليف تترتب عليه المسؤولية ومن ثم الثواب والعقاب العاجل والآجل ومن الأدلة الدالة على المسؤولية بشقيها الفردية والجماعية وكذا الثواب

والعقاب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (cxii). وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

رَهْنَةً﴾ (cxiii). وقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ * أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (cxiv).

وقول الرسول ﷺ فيما رواه ابن عمر ؓ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (cxv)، وقوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم) (cxvi). ومن التكليفات الإلهية للإنسان المختصة بالوطن (الأرض): عمارة الأرض، وعدم الإفساد فيها.

أما عمارة الأرض: فهو مطلب إلهي بدليل قوله عز وجل ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكَ فِيهَا﴾ (cxvii): أي: أقدركم على عمارتها وأمركم بها (cxviii)، ولعل هذا النص هو الذي استند إليه العلامة ابن خلدون عندما استخدم مصطلح (ال عمران) وهو يتحدث عن قيام الدول والمجتمعات وسقوطها في كتابه (المقدمة)، والمعنى القرآني للاستعمار المذكور في النص السابق يخالف ما تعارف عليه الناس في العصور الحديثة من معنى الاستعمار الذي هو: استيلاء الدول القوية على بلاد المستضعفين واستثمارها واستعباد أهلها لمصالحهم (cxix) فهذا مرادف للاستعباد، وذلك دعوة إلى تعمير الأرض والأوطان وتحقيق الوظيفة الوجودية للإنسان المتمثلة في عبادة الله تعالى وحده ، والقيام بواجب الخلافة في الأرض..

وأما عدم الإفساد في الأرض: فإذا أمر الله الإنسان بتعمير الأرض ، ففي المقابل نهاه عن الإفساد فيها قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (cxxx). يقول ابن عطية - رحمه الله- " ألفاظ عامة - الإفساد والإصلاح - تتضمن كل إفساد، قل أو كثر، بعد إصلاح، قل أو كثر، والقصد بالنهي على العموم وتخصيص شيء دون شيء تحكم إلا

أن يقال على وجه المثال^(cxcxi). والإفساد مذموم ومنهي عنه في كل حال، وإنما خص الإفساد بعد الإصلاح لأنه أظهر قبحاً من الإفساد بعد الإفساد^(cxcii)، وقد ذكر العلماء أمثلة كثيرة للإفساد في الأرض منها: الشرك بالله تعالى، وسفك الدماء، والهرج في الأرض، وتغوير المياه، وقطع الأشجار، والأصل الكلي الضابط لذلك هو أن كل سلوك مخالف للشرع القويم والعقل الرشيد يُعتبر من الإفساد في الأرض مهما كان أثره في الواقع.

المبحث الثالث المسلم ووطنه

المطلب الأول: فطرية حب الوطن والانتماء إليه:

حب الوطن^(cxxxiii). مركز في وجدان الإنسان وفطرته، نرى هذا الحب وهو قضية عاطفية وجدانية قلبية تتجسد في سلوكيات مشاهدة من قبل الأفراد والجماعات ، والأمم تكون قرينة على حبهم لأوطانهم ، وغيرهم عليها ، وهذا الحب تغذيه ، وتنميه أسباب معنوية ، ومادية تجعل المسلم أكثر حبا لوطنه ، وارتباطاً به ، ومن هذه الأسباب: أولاً: أن الشارع الحكيم جعل مفارقة الوطن إحدى العقوبات الشرعية ، وذلك عن طريق النفي ، أو الإجماع ، أو الإخراج.

أما النفي: فجاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(cxxxiv). والنفي: هو أن ينفي من بلد إلى بلد آخر ، ويسجن فيه إلى أن تظهر توبته على ما ذهب إليه الإمام مالك بن أنس^(cxxxv) ، والحكمة من العقوبة بالنفي أن فيه مفارقة المألوف (الوطن) والأحباب وتنغيص العيش وهذا له أثره النفسي الجسيم الذي يفوق الأثر المادي على المذنب ؛ وهذا نعلم أنه لو لم يكن حب الوطن ، والتعلق به ، والاستقرار فيه موجود لدى الإنسان وجوداً فطرياً لما عاقبه الشارع بنقيضه وهو النفي منه.

والجلاء طبقه رسول الله ﷺ مع يهود بني النضير عندما خانوا المواثيق والعهود ، وأرادوا أن يقتلوه فأجلاهم من المدينة إلى أذرعات بالشام ، وفيهم نزل قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾^(cxxxvi). والجلاء: مفارقة الوطن ، والفرق بين الجلاء والإخراج الذي ستحدث عنه بعد قليل من وجهين^(cxxxvii):

أحدهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد وجماعة. ويختلف النفي عن الجلاء، والإخراج في أنه عقوبة مؤقتة تنتهي بتوبة المنفي ثم رجوعه إلى وطنه، أما الجلاء والإخراج فلا رجوع بعدهما.

ولشدة الجلاء في الردع، وقوته في الزجر فقد توعد الله به المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفين الذين كانوا يسكنون المدينة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، ويشطون عن الجهاد وينشرون الإشاعات كما يفعل ما يُعرف بالطابور الخامس في زماننا هذا قال تعالى:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (cxviii)

وأما الإخراج: عن الوطن فلشدته قد قرنه الله تعالى بالقتل فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ (cxix)؛ ولذلك قيل: (الإخراج من الوطن أخو القتل) (cxxx)

وفي حديث ورقة بن نوفل لما أخبره ﷺ خبر ما رأى، قال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى، ياليتني فيها جذاً، ليتني أكون حياً إذ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فقال ﷺ: (أَوْمُخِرْجِيَّ هُم؟) (cxxxi). يقول الإمام السهيلي في (الروض الأنف): معلقاً على قول رسول الله ﷺ: (أَوْمُخِرْجِيَّ هُم؟) وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ: لَتَكْذِبَنَّه فلم يقل له النبي ﷺ شيئاً، ثم قال: وَلَتَوْذِبَنَّه فلم يقل له شيئاً ثم قال: وَلَتُخْرِجَنَّه، فقال: (أَوْمُخِرْجِيَّ هُم؟) ففي هذا دليل على حب الوطن وشدة مفارقتها على النفس... فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه ما لم تتحرك قبل ذلك فقال: (أَوْمُخِرْجِيَّ هُم؟) والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه وذلك أن الواو تُرَدُّ إلى الكلام المتقدم، وتشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار أو التفجع لكلامه أو التألم منه (cxxxii)

وبالفعل فقد أخرج مشركوا قريش رسول الله ﷺ بعد ذلك مهاجراً إلى المدينة قال تعالى:
﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (cxxxiii).

فأسلوب الإخراج من الوطن بغير حق هذا سنة ماضية في تاريخ الأنبياء والرسل والمصلحين فكم من رسول أُخرج فعلاً ، وآخر هُدّد به ليتنازل عن مبادئه ، ودعوته :
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ أَنْتُمْ أَنْزِلُوا آيَاتِكُمْ مِنْ سَمَاءٍ أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُلَاقَنَّكَ الْعُقَلْبِينَ * وَلَنَسْكَنَنَّكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (cxxxiv).
﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَائِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (cxxxv).

ثانياً: أن من السنة تعجيل السير عند القرب من الوطن ، والدعاء عند السفر منه ، والرجوع إليه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر ، فنظر إلى جذرات المدينة ، أوضع راحلته ، وإن كان على دابة حرّكها من حُبّها) (cxxxvi). يقول الإمام ابن بطال: "وتعجيل سيره ﷺ إذا نظر إليها من أجل أن قرب الدار يجدد الشوق للأحبة ، والأهل، ويؤكد الحنين إلى الوطن، وفي رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة" (cxxxvii)، وفي حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره

خارجاً إلى سفرٍ حمد الله تعالى وسبح، وكبر ثلاثاً، ثم قال : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَحَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(cxxxviii)، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما تَرْضَى ، اللهم هَوِّنْ عَلَيْنَا فِي سَفَرِنَا هَذَا ، واطْوِ عَنَّا بُعْدَ الْأَرْضِ ، اللهم أنتَ الصاحبُ في السفر، والخليفةُ في الأهلِ ، اللهم إني أعوذ بك من وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وكآبَةِ الْمُنْتَظَرِ ، وسوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ، وإذا رجع قَاهِنٌ - وزاد فيهنَّ - : آيُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ ، لِرَبِّنَا سَاجِدُونَ^(cxxxix)، وموضع الدلالة في الحديث في قوله ﷺ (والخليفة في الأهل) ، والخليفة مَنْ يقوم مقام أحد في إصلاح أمره ، والمعنى أنت الذي نرجوك ونعتمد عليك في أن تتولى أمر أهلنا وتحفظ عليهم دينهم ، وأماناتهم ووطنهم ، وكذا استعاذته ﷺ : (من سوء المنقلب) أي: أن ينقلب إلى وطنه فيلقى ما يكتب منه من أمر أصابه في سفره أو فيما يقدم عليه^(cxl)، ولا أسوأ من أن يرجع الإنسان إلى وطنه ويجده قد أصابه السوء.

ثالثاً: أن الوطن من تربيته خُلِقَ الإنسان باعتبار أصله ، وفيه ولد ، ونشأ ورزق، سُئِلَ بعضهم وقيل له: إن ابن آدم يعلم أن الدنيا ليست بدار قرار فليم يطمئن إليها؟ فقال: لأنه منها خُلِقَ، فهي أمه، وفيها وُلِدَ، فهي مهده، وفيها نشأ، فهي عشه، وفيها رُزِقَ، فهي عيشه، وإليها يعود فهي كفاته، وهي ممر الصالحين إلى الجنة^(cxli).

يقول الشاعر^(cxlii):

خُلِقْنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا خَلَقْتَ أَبْنَاؤُهَا لَوْ أَنَا شُكْرُ

الْقَرَارُ فَمَا نَبْغِي بِهَا بَدَلًا أَرْحَمَ الْأَرْضِ إِلَّا أَنَا كُفْرُ

وفي المعنى ذاته يقول ابن الرومي^(cxliii):

وَطَنٌ آلَيْتُ أَلَا أَيْعِهِ ؟ أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرُ مَالِكًا

تُ بِهِ شَرَحَ الشَّبَابَ وَنِعْمَةً قَوْمٌ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا

والذي يَقْوِي ما تم ذكره أن هذه الأرض التي ينشأ بها الإنسان يقنع ، ويرضى بها حتى ولو لم تكن طيبة الماء والهواء (المناخ).

يقول الشاعر^(cxliv):

ألفناها ولم تكن مألفاً يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
نؤلف الأرض التي لم يطب بها ولا ماء ولكنها وطن

يقول عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما: "ليس الناس بشيء من أقسامهم أفقع منهم بأوطانهم"^(cxlv).

رابعاً: أن الشفا يكون بتربة الوطن بإذن الله تعالى، فمن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى الإنسان الشيء منه ، أو كانت به قرحة أو جرح ، قال بإصبعه هكذا - ووضع سفيان سبأته بالأرض ثم رفعها - وقال : بسم الله ، تربة أرضنا ، برقة بعضنا، يُشفى به سقيمنا ، بإذن ربنا^(cxlvi). والحديث فيه دلالة على جواز الرقي من كل الآلام وهو عام في تربة كل وطن^(cxlvii) وإذا كان المسلم يعلم كما ذكرنا سابقاً أن تربة الوطن تغذي ، وتروي جاء الحديث ليؤكد معنى آخر متعلق بالوطن فترتبه بالإضافة إلى أنها تغذي فهي كذلك تشفي^(cxlviii) وهذا ما يجعل الحب له أكثر والتمسك بالحفاظ عليه أشد وأقوى.

ثانياً: الانتماء إلى الوطن:

كان العرب قبل الإسلام ينتسبون إلى القبيلة والوطن عندهم يعرف بالقبيلة لا العكس ، ولما جاء الإسلام تغيرت معنيته المفاهيم ، والتصورات فأبطل ما هو مخالف لعقيدته السمحاء ، وشريعته الغراء ، وأقر ما كان صالحاً من الأعراف والعادات، ووفقاً لذلك فقد أقر الإسلام مسألة الانتساب إلى القبيلة ، ولكن جعلها محصورة في دائرة التعارف الاجتماعي لتحقيق التواصل ، وصلة الأرحام كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(cxlix)، وفي حديث النبي ﷺ: (تَعْلَمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنْ صَلَوةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاءٌ^(cl) فِي الْمَالِ، مَنَسَاءٌ^(cli) فِي الْأَثَرِ)^(clii)، وفي سيرة النبي ﷺ

نلاحظ التطبيق الفعلي لهذا المبدأ حيث ألغى كل تمييز قبلي ، وجمع سكان المدينة تحت اسم واحد هو (الأنصار)، كما أطلق على المكيين الذين هاجروا معه من مكة اسم (المهاجرين)^(cliii)، وأصبح الانتماء الأول إلى العقيدة لا إلى القبيلة، ثم لما كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ظهر الانتماء إلى المواطن المفتوحة وظل هو كذلك في دائرة التعارف من أجل تسيير العمل الإداري للولاة والأمراء في الدولة الإسلامية، يقول العلامة ابن خلدون: "وقد كان وقع في صدر الإسلام الانتماء إلى المواطن فيقال جند قنسرين، جند دمشق. وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم"^(cliv).

وهذا المعنى للانتماء إلى الوطن الذي ظهر في صدر الإسلام هو الذي ظل موجوداً في وعي الشعوب المسلمة إلى يومنا هذا حتى مع غياب السلطة السياسية الموحدة للأمة، حيث الانتماء إلى الأخوة الإسلامية القائمة على العقيدة، وهي التي جمعت هذه الشعوب على مختلف ألوانها ، ولغاتها ، وأجناسها، وأذابت كل الحواجز الإثنية ، والجغرافية ، واللغوية، بالرغم مما قام به المستعمر الغربي من جهود كبيرة ، وجبارة في ترسيم حدود جغرافية وهمية بغية تجزئة الأمة الإسلامية جغرافياً، ومن ثم يتحول انتماء هذه الشعوب وولاؤها ليكون لهذه الأقاليم الجغرافية المجزئة لا إلى عقيدتها الضامنة لوحدها الفكرية ، والثقافية ، والسياسية.

المطلب الثاني: الوطنية المُعلَّنة ومفاسدها

الوطنية في مفهومها المتعارف عليه: هي تعبير قومي يعني حب الشخص وإخلاصه لوطنه، ويشمل ذلك: الانتماء إلى الأرض والناس والعادات والتقاليد والفخر بالتاريخ والتفاني في خدمة الوطن^(clv).

والتأمل في هذا التعريف يجده يعبر عن المضمون العلماني لفكرة الوطنية وذلك للأسباب التالية:

أولاً: أن التعريف خلا من الإشارة إلى العقيدة والانتماء إليها ، وكان البديل هو الانتماء إلى العادات والتقاليد وهذا ما ركز عليه دعاة الوطنية المعلمنة عندما طرحوا فكرة الوطنية

وغيّبوا الدين من أجل إرضاء الأقليات غير المسلمة التي تعيش في البلاد الإسلامية ودمجها في المجتمعات الإسلامية وجُل هؤلاء ينتمون إلى تلك الأقليات^(clvi).

ثانياً: كذلك لا يُوجد ما يشير إلى حدود هذا الانتماء إلى الوطن هل هو في مرتبة تالية للانتماء إلى العقيدة أم أنه أولاً ، ولعل الثاني هو المرجح كما توحى به ألفاظ التعريف ، وينادي به أصحاب الوطنية المعلمنة في الواقع.

ثالثاً: والتعريف أشار إلى أن من مضامين الوطنية الفخر بالتاريخ حتى ولو تمت صناعته بعقيدة وثنية وهذا ما أفرزته الوطنية المعلمنة فعلاً فقد نادى البعض بإحياء التراث الجاهلي للحزيرة العربية والاعتزاز به ، وآخرون نادوا بتراث النوبة ، وفريق ثالث نادى بتاريخ الأشروريين ، وفريق رابع نادى بتاريخ الفراعنة ... وهكذا، وهذا أمرٌ يأباه الإسلام ويتنافى مع عقيدته التوحيدية.

ثم إن المناداة بالوطنية المعلمنة التي أشرنا إليها والتي تم تطبيقها في الواقع الإسلامي ترتّب عليه مفسدات كبيرة يمكن الإشارة إلى بعضها:

أولاً: عبادة الوطن ، وتقديسه ، وتصنيمه حيث أصبح الولاء له لا لله ورسوله والمؤمنين ، وأصبحت العبارة التي تُسمع من أفواه كثير من الرؤساء والزعماء في البلاد العربية والإسلامية: (باسم الوطن) ويستحي أحدهم ويتوارى من شعبه من أن يقول: (بسم الله). وكما مر بنا في المطالب السابقة فإن الأرض جميعها مخلوقة لله تعالى ، وإذا كان الأمر كذلك ، وهو الحق الذي لا مرية فيه ، فالعبادة ، والتقديس ، والإجلال والتعظيم ينبغي أن يكون للمخلوق وليس للمخلوق ، ويرتبط بذلك أن يستجيب الإنسان لأمر ربه بتنفيذ ما أَراده الله في الأرض ، وفي هذا المعنى يقول فيلسوف الإسلام في العصر الحديث (محمد إقبال) ناعياً ما أصاب الأمة الإسلامية: "إن الرجل المؤمن الحر لم يكن يعرف الحدود والجهات، ولا يعبد غير الإله الواحد الذي خلق السموات والأرض، أصبح يؤمن بالوطن ويقدسه، ويعبده، ويقاقل في سبيله ويكفر بالله ويهجره ويتناساه"^(clvii).

ويقول أيضاً وهو يخاطب العرب والمسلمين: "لا تتم الفكرة الإسلامية إلا بإنكار القوميات، والوطنيات والفلسفات المادية، إن العالم العربي أيها السادة، لا يتكون ولا يظهر إلى الوجود بالتغور، والحدود وإنما يقوم على أساس هذا الدين وعلى الصلة بمحمد ﷺ" (clviii).

ثانياً: تقدم الانتماء والولاء للوطن على الانتماء والولاء للعقيدة (رابطة الدين). حب الوطن من القيم التي أقرها الإسلام واعترف بها، فحبه أمر فطري والإسلام دين الفطرة، ولكن الذي يرفضه الإسلام أن يتجاوز الإنسان بهذه القيمة (الولاء للوطن) حدودها فيقع

فيما حذر منه المولى عز وجل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (clix).

ثالثاً: تجزئة الأمة المسلمة جغرافياً، وسياسياً لتصبح عبارة عن وحدات جغرافية متباعدة متنافرة. أهل كل وحدة يعتزون ويفتخرون بإقليمهم الجغرافي ويلعنون البقية، وتنشأ الصراعات الحدودية، والقتال على الموارد الطبيعية بين الشعوب الإسلامية.

وهذا التقسيم الذي تم للبلاد الإسلامية في شكل دويلات وطنية كان بفعل المستعمر الغربي حيث إن هذا التقسيم بهذا الشكل يلي حاجته لغرض هيمنته وتبرير مشروعه الامبريالي التوسعي (clx).

ومن جانب آخر فإن فكرة الوطنية المعلنة التي تم استيرادها من الغرب والترويج لها في البلاد الإسلامية لا يطبقها الغرب في واقعه السياسي والديني فالغربيون عندما يتحدثون عن الوطنية والقومية لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء، والشجر، والحجر، ولا بالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دم واحد، وإنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيهما من جغرافية وتاريخ، وثقافة، وحرث، وعقيدة، ودين، وخلق، وعادة مجموعاً ذلك معاً فهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون من أجله (clxi)، وهو ما ظلت تنادي

به الكنيسة منذ وقت سحيق فقد عملت على أن يشعر جميع الشعوب المسيحية التي استقرت في بقاع مختلفة من العالم، بأنها أعضاء في مجتمع مسيحي كبير على الرغم من اختلاف لغاتهم وأجناسهم وأوطانهم^(clxiii).

بقي أن نقول: إذا كان الانتماء إلى الوطن من أجل التعارف كما مر بنا، أو من أجل الدفاع عن جزء من الأرض الإسلامية أيًا كان اسم ذلك الجزء: السودان أو السعودية، أو باكستان، أو تركيا... الخ. فلا ضير في هذا النوع من الانتماء لأمرين:

الأول: أن الدين ليس شيئاً يتعلق بين السماء والأرض كما أن الإنسان لا يعيش في الجو، وإنما يعيش على هذه الأرض^(clxiii)، وعلى وجه الخصوص الجزء من الأرض الذي يقطن فيه ويكون هو الإطار المكاني لتطبيق الدين في الواقع، فإن الدين يحتاج إلى أرض يطبق عليها؛ ومن ثم يجب تنميتها والدفاع عنها.

الثاني: أن هذا مطلب الشرع إذ طلب من أهل كل مصر إسلامي الدفاع عنه ومقاتلة العدو الأقرب إليهم مكانياً قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(clxiv)، والقرب المكاني لا بد من فهمه في هذا النص القرآني بمعناه الشامل وكل احتمالاته الممكنة والمتوقعة فالعدو الأدنى والأقرب قد يكون مجاوراً لأرض المسلمين على حدودها فالأقرب إليه من المسلمين هم الذين يقومون بقتاله ومدافعتة، وقد يكون العدو الأقرب وسط البلاد الإسلامية حط بطائراته، وأساطيله، وجواسيسه واستخباراته، ومنظماته، في قلب البلاد الإسلامية كما يحدث الآن في فلسطين والعراق، وأفغانستان، والسودان، والصومال، وغيرها من البلاد الإسلامية فأهل هذه البلاد يجب عليهم استجابة لانتمائهم العقدي والوطني أن يدافعوا العدو ويقاقلوه ليخرجوه من أرضهم التي هي جزء من الأرض الإسلامية.

الخاتمة

وبعد هذه الوقفات مع فكرة الوطن ومضمونها العقدي ، وتحليل مفهوم الوطن في دلالاته المختلفة ، ثم بيان الإطار العقدي لفكرة الوطن وأخيراً الحديث عن حب الوطن والانتماء إليه ومفاسد الوطنية المعلمنة يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

١- أن الوطن الحق ، والأبدي بالنسبة للمسلم هو الجنة ، وبالنسبة للكافر هو النار كما قال مؤمن آل فرعون عندما خاطب قومه بقوله ﴿يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْهَيَؤَةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

٢- وأن هذه الأرض التي تعتبر الوطن الأكبر للبشرية جمعاء ، الله هو الذي هيأها وجعلها صالحة للعيش عليها ؛ وهذا يحتم على الإنسان شكر المُنعم على نعمة المأوى ، والوطن، ويعمل على إصلاحها وتنفيذ شرع الله عليها.

٣- وتبين لنا أن حب الوطن أمر فطري أقره الإسلام ، وأن الانتماء إليه لا ضير فيه إذا لم يزاحم الانتماء إلى العقيدة ؛ وإذا كان من أجل التعارف ؛ وحماية جزء من أرض الإسلام.

٤- وأن فكرة الوطنية المعلمنة دخيلة على المجتمعات الإسلامية ، وقد استغلها أعداء الدين من أجل القضاء على رابطة العقيدة ، وتجزئة الأمة المسلمة جغرافياً.

وأما التوصيات فيمكن الإشارة هنا إلى الآتي:

١- أن تتولى المؤسسات التعليمية والجمعيات والروابط الثقافية مهمة توعية المسلمين بالمفهوم الصحيح لفكرة الوطن ، والوطنية في الإسلام حتى لا يقعوا فريسة المفاهيم الغربية المشوهة.

٢- كما أن على الدعاة ، والعلماء ، ومراكز التنشئة الاجتماعية القيام بغرس القيم الإسلامية المتعلقة بالحفاظ على الوطن من: مرابطة ، وحراسة ، وجهاد ، وبيان أن الحفاظ على الوطن حفاظ على الدين ، والتفريط فيه نوع من الانتحار الديني ، والحضاري.

انتهى والحمد لله

- (i) ٩٣٠/١ يُنظر أيضاً: القاضي عياض، مشارق الأنوار ٢/٢٨٥، وابن منظور، لسان العرب ٤٥١/١٣.
- (ii) يُنظر: الفيومي، المصباح المنير ٦٦٣، ٦٦٤.
- (iii) يُنظر: الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز ٢/١٩٦-١٩٧.
- (iv) النور: ٢٧.
- (v) يُنظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٥/٧٨، والفيروز آبادي، القاموس المحيط ١٣٢٣.
- (vi) البقرة: ٥٨.
- (vii) العنكبوت: ٣١.
- (viii) يُنظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ١٢٣٣.
- (ix) الكهف: ٨٢.
- (x) يس: ٢٠.
- (xi) البقرة: ٦١.
- (xii) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١/٢٨١.
- (xiii) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١/٢٨١-٢٨٢.
- (xiv) يُنظر: الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية ٢٢-٢٣.
- (xv) يُنظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط ٢٦٩.
- (xvi) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز ٢/٢٧٢.
- (xvii) آل عمران: ١٩٦.
- (xviii) الفجر: ٧-١٢.
- (xix) يُنظر: مارتن غريفيش وزميله، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية ٢١٥ وما بعدها.
- (xx) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز ٢/٥٣.
- (xxi) سيأتي ذكر هذه الوجوه في المبحث الثاني بحوله تعالى.
- (xxii) البقرة: ٢٢.
- (xxiii) النساء: ٩٧.
- (xxiv) يُنظر: الجرجاني، التعريفات ٢١٢، والكفوي، الكليات ٩٤٠، والتهافوي، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم ٢/١٨٠٠.

- (xxv) يُنظر: المصادر نفسها وكذا الصفحات.
- (xxvi) الرحمن: ٢٦-٢٧.
- (xxvii) ابن جزري، التسهيل لعلوم التنزيل ٣/٣٢٩.
- (xxviii) إبراهيم: ٤٨.
- (xxix) الروم: ٩.
- (xxx) الحج: ٤٥.
- (xxxi) الكهف: ١٠٢.
- (xxxii) يُنظر: ابن جزري، المصدر نفسه ١/٤٧٥.
- (xxxiii) الإسراء: ٩٧.
- (xxxiv) يُنظر: ابن جزري، مصدر سابق ١/٤٥٥.
- (xxxv) الأنعام: ١٢٨.
- (xxxvi) يُنظر: الرازي، مفاتيح الغيب ١٣/١٤٩.
- (xxxvii) فصلت: ٢٨.
- (xxxviii) إبراهيم: ٢٨، ٢٩.
- (xxxix) فاطر: ٣٥.
- (xl) يُنظر: ابن جزري، مصدر سابق ٢/١٧٦.
- (xli) الكهف: ١٠٧.
- (xlii) الفرقان: ٢٤.
- (xliii) النازعات: ٤٠، ٤١.
- (xliv) التحريم: ١١.
- (xlv) ابن الأثير، جامع الأصول، ١١/١٨٦، ح ٨٧١٩، (خ م ت) عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه.
- (xlvi) الروداني، مصدر سابق، ٤/٢٢٢، ح ١٠٠٥٢، (خ) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.
- (xlvii) ابن الأثير، مصدر سابق، ٨/٦١٢، ح ٦٤٣٩، (ت) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه.
- (xlviii) المصدر نفسه ١٠/٤٩٨-٤٩٩، ح ٨٠٣١، (خ م د) عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه.

- (xlix) الزمر: ٢٠.
- (l) العنكبوت: ٥٨.
- (li) ابن الأثير، المصدر نفسه ٥٥٠/٩ - ٥٥١، ح ٧٢٩٣، (ت) عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.
- (lii) القصص: ٨٣.
- (liii) ينظر: ابن رجب، جامع العلوم والحكم ٣٧٩/٩.
- (liv) هود: ١٢٣.
- (lv) الزمر: ٦٢.
- (lvi) العنكبوت: ٥٦.
- (lvii) الأعراف: ١٢٨.
- (lviii) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٦ - ٣٣.
- (lix) يُنظر: ٥٤/٢ وما بعدها.
- (lx) الأنبياء: ١٠٥.
- (lxi) الأعراف: ١٣٧.
- (lxii) النساء: ٩٧.
- (lxiii) القصص: ٤.
- (lxiv) الكهف: ٩٤.
- (lxv) العنكبوت: ٤٤.
- (lxvi) النساء: ٤٢.
- (lxvii) المائدة: ٢٦.
- (lxviii) الرعد: ١٧.
- (lxix) الجمعة: ١٠.
- (lxx) لقمان: ٣٤.
- (lxxi) النساء: ٩٧.
- (lxxii) الأحزاب: ٢٧.
- (lxxiii) إبراهيم: ٤٨.

(lxxiv) إبراهيم: ١٣، ١٤.

(lxxv) الأعراف: ١١٠.

(lxxvi) الزخرف: ٥١.

(lxxvii) الزمر: ٦٢.

(lxxviii) ساجان ، الأرض ١٩.

(lxxix) الدخان: ٣٨، ٣٩.

(lxxx) فصلت: ٩-١٢.

(lxxxi) الإسراء: ٤٤.

(lxxxii) طه: ٥٥.

(lxxxiii) الرودائي، مصدر سابق ٣٩/٤، ح ٩١٨٢، (د ت) عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه.

(lxxxiv) إبراهيم: ٤٨.

(lxxxv) الروم: ٨.

(lxxxvi) يُنظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٠٢/٤.

(lxxxvii) يُنظر: ساجان، مصدر سابق، ٢٣ وما بعدها.

(lxxxviii) ساجان ، مصدر سابق ٦٧.

(lxxxix) الرعد: ٣.

(xc) ينظر: الرازي، مصدر سابق ٣٣٧/٢ وما بعدها

(xci) الرعد: ٤

(xcii) فاطر: ٢٧.

(xciii) الطارق: ١٢.

(xciv) المؤمنون: ١٨.

(xcv) الرعد: ٣.

(xcvi) الأنعام: ٥٩.

(xcvii) النمل: ٢٥.

(xcviii) يس: ٣٣.

(xcix) لقمان: ١٠.

- (C) ق: ٧.
- (ci) يُنظر: ساجان، مصدر سابق ٢٣.
- (cii) الروم: ٢٠.
- (ciii) ص: ٧٢.
- (civ) التين: ٤.
- (cv) يُنظر: أبوريدة، مضمون القرآن ١٢١ وما بعدها.
- (cvi) المؤمنون: ٧٨، ٧٩.
- (cvii) الحجرات: ١٣.
- (cviii) الإسراء: ٧٠.
- (cix) الحجرات: ١٣.
- (cx) الأحزاب: ٧٢.
- (cxi) الروداني، مصدر سابق ١/٤٥٠، ح ٢٦٧١، (خ م د ت ن) عن ابن عباس - رضي الله عنهما.
- (cxii) الأنعام: ١٦٤.
- (cxiii) المدثر: ٣٨.
- (cxiv) الإسراء: ١٣، ١٤.
- (cxv) الروداني، مصدر سابق، ٤/٤٣٤، ح ٥٩٦٠، (خ م د ت ن) عن ابن عمر - رضي الله عنهما.
- (cxvi) المصدر نفسه ٣/٣٢٥، ح ٧٩٠١.
- (cxvii) هود: ٦١.
- (cxviii) يُنظر: الزمخشري، الكشاف ٢/٤٠٧، والبيضاوي، مصدر سابق، ٣/١٣٩، وابن جرير، مصدر سابق ١/٣٧٢.
- (cxix) يُنظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار ١٢/١٠١.
- (cxx) الأعراف: ٥٦.
- (cxxi) تفسير ابن عطية ٢/٤١٠، ويُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٧/٢٢٦.
- (cxxii) يُنظر: محمد رشيد رضا، مصدر سابق، ٨/٤١٠.

(cxxxiii) يقول المحدث ملا علي القارئ: وأما حديث حب الوطن من الإيمان فموضوع وإن كان معناه صحيحاً لا سيما إذا حمل على أن المراد بالوطن الجنة فإنها المسكن الأول، (مراقبة المفاتيح ١١٥٨-١١٥٩/٣).

(cxxxiv) المائدة: ٣٣.

(cxxxv) ابن جزري، مصدر سابق ٢٣٠/١.

(cxxxvi) الحشر: ٣.

(cxxxvii) يُنظر: القرطبي، مصدر سابق ٦/١٨.

(cxxxviii) الأحزاب: ٦٠.

(cxxxix) النساء: ٦٦.

(cxxx) الألوسي، روح المعاني ٥٢٨/٨.

(cxxxix) الروداني، مصدر سابق ٥٢٩/٢، ح ٦٣٧٤، (خ م) عن عائشة - رضي الله عنها.

(cxxxixii) ٢٧٣/٢.

(cxxxixiii) التوبة: ٤٠.

(cxxxixiv) إبراهيم: ١٣، ١٤.

(cxxxixv) الحج ٤٠، ٤١.

(cxxxixvi) ابن الأثير، مصدر سابق ٣٣٣/٩ - ٣٣٤، ح ٦٩٦١، (خ ت) عن أنس بن مالك - رضي الله عنه.

(cxxxixvii) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ٥٥٥/٤، ويُنظر: العيني، عمدة القارئ ٢٤٨/١٤.

(cxxxixviii) الزخرف: ١٣.

(cxxxixix) ابن الأثير: مصدر سابق، ٢٨٢/٤، ٢٨٣، ح ٢٢٧٩، (م د ت) عن ابن عمر - رضي الله عنهما.

(cxl) ملا علي القارئ، مصدر سابق، ١٦٨٠/٤.

(cxli) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز ٥٤/٢.

(cxlii) المصدر نفسه، وكذا الصفحة.

(cxliii) ديوان ابن الرومي، ١٤/٣.

(cxliv) الزمخشري، ربيع الأبرار ٢٨٦/١.

- (cxlv) المصدر نفسه ٢٨٨/١.
- (cxlvi) ابن الأثير، مصدر سابق ٥٥٩/٧، ح ٥٧٠٨، (خ م د) عن عائشة - رضي الله عنها.
- (cxlvii) يُنظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ٢٠٨/١ وما بعدها.
- (cxlviii) يُنظر: ابن باديس، مصدر سابق، ٣٧٨/١.
- (cxlix) الحجرات: ١٣.
- (cl) مثارة من الثراء: الكثرة (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢١٠/١).
- (cli) منسأة في الأثر: أي: مظنة له وموضع (المصدر نفسه ٤٤/٥).
- (clii) ابن الأثير، جامع الأصول ٤٤٨/٦، ح ٤٦٩٦، (خ ت) عن أبي هريرة - رضي الله عنه.
- (cliii) يُنظر: سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب ١٨.
- (cliv) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/١.
- (clv) يُنظر: الموسوعة العربية العالمية (مادة الوطنية)، وأيضاً: مينش، الأمة والمواطنة ١٣٨ وما بعدها.
- (clvi) يُنظر: جورج أنطيوخس، يقظة العرب ٩٧ وما بعدها.
- (clvii) الندوي، روائع اقبال ١٠٨.
- (clviii) المصدر نفسه ٧٥.
- (clix) التوبة: ٢٤.
- (clx) يُنظر: اشكروف وزميلاه، دراسات ما بعد الكلولوجيا ٢٩٧، وأيضاً، غدنز، علم الاجتماع ٤٩٥، وأيضاً سافيدان، الدولة والتعدد الثقافي ١٠ وما بعدها.
- (clxi) يُنظر: أشكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ١٣٩.
- (clxii) يُنظر: شيني، تاريخ العالم الغربي ٢٠٧.
- (clxiii) يُنظر: الندوي، الطريق إلى السعادة ١٧ وما بعدها.
- (clxiv) التوبة: ١٢٣.